أهمية التَّذوُّق الأدبيّ في فَهْم عبارات الصُّوفيَّة

Significance of Literary Taste in Sufi Terminologies Perception

أنس عطية الفقي *
anasatia@hotmail.com

الملخّص:

للتَّصوُّف الإسلاميّ مصطلحات صدرت عن أهله لتعبِّر عن مواجيدهم وأحوالهم، وما يلاقونه من منازلاتٍ في طريق الوصول إلى الله. والتَّصوُّف طريق تزكية يبدأ بالزُّهد والتَّخلِّي عن الدنيا وشهواتها، ثم يُردَف بالتحلي بصدق العبوديَّة، ومكارم الأخلاق، والمحبَّة، ثم ينتهي بالتَّجلِّي، أي: بتجلِّي الله تعالى على العبد. وفي حالة التَّجلِّي هذه قد تخرج من العبد عبارات رمزيَّة أو تعبيرات مجازيَّة توهم غير متذوقها بأفكار أبعد ما تكون عن حقيقة الحال.

ومن اللافت أن نجد من بين علماء الشَّريعة مَن يسارع في الإنكار على الشعراء الذين يُعبِّرون بلغة المشاعر لا بلغة العقول، أما علماء الإسلام الكبار، والفقهاء الربانيون فإنَّهم يتفَهْمون، بل يتذوقون عبارات الوَجد والشَّوق التي قد تصدر عن شعراء الحب الإلهي؛ لأن الشِّعر على وجه الخصوص له لغة رمزيَّة خاصة يعرفها كلُّ من تعرَّض لدراسة الأدب في أي لغة على مستوى العالم.

وقد تناول هذا البحثُ نماذجَ من عبارات الصُّوفيَّة –شعرًا ونثرًا– وبيَّن مقاصدها الفكريَّة من خلال التَّذوُّق الأدبيّ السَّليم، الذي يراعي حال القائل وما وظفه من

* أستاذ الأدب العربي كلية اللُّغات والتَّرجمة – جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.
* مدير مركز تحقيق التراث العربي – جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

الطاقات الدِّلاليَّة للألفاظ والعبارات؛ فتوصَّل إلى أنه لا تناقضَ بين النُّصوص الشَّرعيَّة والأحوال الروحيَّة المعبَّر عنها بالأسلوب الأدبيّ.

الكلمات المفتاحية: التَّصوُّف الإسلاميُّ؛ المصطلحات الصُّوفيَّة: تذوُّق الأدب الصُّوفيّ؛ الحب الإلهي؛ الشطحات الصُّوفيَّة.

Abstract:

Islamic Sufism adherents have produced unique terminologies to picturesque their spiritual vibes, states, and trials encountered on their path to God (Allah) worship. Sufism is a purificatory spiritual path that begins with asceticism, and renunciation of materialistic desires, followed by sincere worship, fine morals, and God's love. and then ends with culminating in the manifestation or realization of God (Allah). In this state of manifestation, the Sufi may utter symbolic or metaphorical terminologies that may be misjudged by those unfamiliar with the spiritual nature of such language.

It is salient that many scholars of Islamic Shari'ah have been quick to condemn Sufi poets who express themselves through the language of emotions, not intellect. on the other hand, great Islamic scholars and religious jurists have demonstrated a deep understanding and taste for the delight and yearning terminologies for god's love in Sufi poets. because Poetry particularly possesses a unique symbolic language recognized by those who have studied literature in any language worldwide.

This paper demonstrates various Sufi terminologies, both poetic and prose, and illustrates their implicit intellectual intentions through the right literary taste. By considering the speaker's state and the semantic potential of words and phrases, the paper concludes that there is no inherent contradiction between the normative texts of Islamic Shari'ah and the spiritual states expressed through literary means.

Keywords: Islamic Sufism, Sufi terminology, Sufi literary taste, God's love, Sufi radicalism.

من المقرر عند أهل العلم ضرورة وجود "مصطلحات"، أي: ألفاظ معينة، اتفق أهل التَّخصص على دلالتها ومعناها في العِلم الذي سيقت فيه. ولذلك يحتاجُ الدَّارس إلى تفسيرها وتوضيحها وبيان مقاصدها في سياقها.

وللتَّصوُّف الإسلاميّ مصطلحات صدرت عن أهله لتعبِّر عن مواجيدهم وأحوالهم، وما يلاقونه من منازلاتٍ في طريق الوصول إلى مولاهم، من هذه المصطلحات: الحال، والمقام، والجمع، والفرق، والغيبة، والحضور، والفناء، والبقاء، إلى آخرها.

والتَّصوُّف طريق تزكية يبدأ بالزُّهد والتَّخلِّي عن الدنيا وشهواتها، ثم يُردَف بالتَّحلِّي بصدق العبوديَّة، ومكارم الأخلاق، والمحبَّة النَّاشئة عن صدق المتابعة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم ينتهي – بفضل الله – بالتَّجلِّي، أي: بتجلي الله تعالى على العبد، فيشهده فاعلًا في كل شيء تحقيقًا لعبارة "**لا حول ولا قوة إلا بالله**" التي هي كنز من كنوز الجنة.[1]

وحديث الولاية الذي أورده البخاري في صحيحه خير شاهد على تجلِّي الله على العبد "**كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها**"[2].

والتَّجلِّي الإلهي على العبد قد يكون حالة واردة ثم تتبدل بحالة أخرى حسبما يريد الله تعالى، وقد يكون التَّجلِّي مقامًا ثابتًا للعبد بفضل ربه، يظهر ذلك في قول الإمام الجنيد – رضي الله عنه: "أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والنَّاس يظنون أني أكلمهم"[3].

المعنى هنا: أنه يشهد الله فاعلًا في خلقه بمقتضى قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

ولا شكَّ أنه مقام عزيز، لا يناله إلا المصطفَون الأخيار من الصديقين ورثة الأنبياء؛ ذلك لأن **مقامات الأنبياء هي أعلى المقامات** عند الله، فهو الذي اصطفاهم وزكَّاهم وأهَّلهم لدعوة الناس وهدايتهم إلى صراطه المستقيم، فحالُهم باطنًا مع الله عز وجل، وظاهرًا مع خلق الله لأداء رسالتهم، أما ما سوى الأنبياء من المؤمنين فَهْم

درجات عند الله، منهم الصديقون والأئمة الوارثون، ومنهم ما دون ذلك، من حيث الاستعداد لمخالطة الناس، والصبر على أذاهم، وكذلك من حيث تأهُّلهم للدعوة والإرشاد.

فأحيانًا تجد عبدًا من عباد الله رزَقَه الله قلبًا طاهرًا ولسانًا ذاكرًا وبدنًا على البلاء صابرًا، ولم يرزقه الحكمة في مخاطبة النَّاس، أو موهبة الدَّعوة الحكيمة، أو الإرشاد التَّربوي، فيفضِّل العزلة أو الاكتفاء بالله، وقد ورد في السنة النبويَّة ما يشير إلى ذلك.[4]

وقد يدور هذا الشخص بين النَّاس ذاهلًا، أو سائلًا، أو طارقًا للأبواب، أَشْعَثَ أغْبَر، وهو عند الله من الأولياء المقبولين، الذين لو أقسموا على الله لأبرَّهم، وهذا ورد أيضًا في حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم: "**رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بالأَبْوابِ لو أَقْسَمَ علَى اللهِ لأَبَرَّهُ**"[5].

فمثل هؤلاء لا ينبغي على المسلم أن يبادر بالإنكار عليهم واتهامهم بالكذب، بل يحسن فيهم الظن حتى يسلم من الإثم في حال صدقهم، أما في حال كذبهم فحسبنا قول الله تعالى: **{وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ}**[6].

أما مسألة الاقتداء بهم، فلا تكون إلا بما يوافق شرعَ الله تعالى ومتابعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو الأصل الثابت الذي أجمع عليه أئمة أهل الطريق.

من هنا وجب التَّنبيهُ إلى التَّحفُّظ مما يصدرُ عن بعض المنتسبين للتَّصوُّف من مصطلحات أو ألفاظ أو عبارات يفَهْمها غيرُهم على غير وجهها الصحيح، بأن يأخذوها بحَرْفِيَّتها، أو يُئَوِّلوها – عمدًا – إلى معانٍ ماديَّة خارجة عن نطاقها الروحي. ونحن نعلم أنَّ اللُّغةَ فيها ما يُسَمَّى بالمجاز الذي تعبِّر عنه المشاعر والأحوال بغير ألفاظها المعتادة.

وقد أكَّد الإمام الغزالي في كتابه الشهير "إحياء علوم الدين" رَفْض أئمة الصُّوفيَّة لهذا المفهوم المادي لاتحاد العبد مع الله أو اتصاله به، وهو ما يُسمى بـ"الاتحاد"، أو

"حلول" الله في العبد، بالمفهوم البَّشري، الذي لا يُتصور أبدًا مع عقيدة أهل السُّنة من الأشاعرة والماتريدية الذين ينفون الجهة والمكان والتجسيم عن الله تعالى، ومن المعروف أن جُلَّ الصُّوفيَّة قد صرحوا بهذا المعتقد ظاهرًا، وأقروا بامتثاله باطنًا.

أما ما يوهم علماء الظاهر بهذه الشبهات فهي تلك الألفاظُ والعبارات التي قد تصدر عن حال وَجْدٍ غيَّب العقل عن حسِّه وعن نفسه.

يقول الغزاليُّ في باب السَّماع: "سماعُ مَنْ جاوز الأحوال والمقامات فعَزَبَ عن فَهْمه ما سوى الله، حتى عَزَبَ عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود الذي يضاهي حالة النسوة اللاتي قَطَّعن أيديهنَّ في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام، حتى بُهِتْن وسقط إحساسهن؛ وعن مثل هذه الحالة تعبِّر الصُّوفيَّة بأنه فنيَ عن نفسه، فهو عن غيره أفنى، فكأنه فَنِيَ عن كلِّ شيء إلا عن الواحد المشهود ... إلى أن يقول: "وهذه رتبة من خاض لُجَّة الحقائق، وعبر ساحل الأحوال والأعمال، واتحد بصفاء التَّوحيد، وتحقق بمحض الإخلاص، فلم يبقَ فيه منه شيء أصلًا، بل خمدت بالكلية بشريتُه، وفَنِيَ التفاتُه إلى صفات البشريَّة رأسًا، ولست أعني بفنائه فناء جسده، بل فناء قلبه، ولست أعني بالقلب اللحم والدَّم، بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية ...".[7]

وقال أيضًا في "باب المحبَّة": "من قَوِيَتْ بصيرتُه ولم تضعُف منتُه فإنَّه في حال اعتدال أمره، لا يرى إلا الله تعالى، ولا يعرف غيره، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثرٌ من آثار قدرته، فهي تابعة له، فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحقِّ الذي به وجود الأفعال كلها".[8] ولعل في هذا الكلام تفسيرًا لقول الإمام الجنيد الذي ذكرناه آنفًا: "أنا أُكَلِّمُ اللهَ منذ ثلاثين سَنة، والناس يظنون أني أكلمهم".

وفي كتاب "تأييد الحقيقة العلية"[9] يُعَقِّب السيوطي على كلام الغزالي في هذه القضية بقوله: "فانظر – وفقني الله وإياك – كيف بيَّن الغزالي أن الفناء عما سوى الله وشهود الحق أمر اعتباريّ معنويّ لا حسيّ، وأن المراد به إسقاط الغير من درجة

الاعتبار، وأنه – أي الغير – في حيِّز التلاشي والاحتقار، وأن المراد برؤية الله في كلِّ شيء أنه يسبق إلى قلبه ذكر ربه عند رؤية كل شيء..، **وانظر كيف صرَّح الغزالي في موضعين بتغليظ مَن قال بالحلول والاتحاد وتضليله وتكفيره..**، والغزالي أَجَلُّ مَن أَعْتَمِدُ عليه في تحقيق هذا المقام؛ فإنه فقيه أصولي متكلم صوفي محقق".[10]

ولو أننا تتبعنا **أقوالَ أئمة الصُّوفيَّة الرَّاسخين في العلم، لوجدناها تؤيد ما قاله الإمام الغزالي** من تبرئة أولياء الله الصالحين من كلِّ وصف لا يعبِّر عن حقيقة أحوالهم، مع تأويل ما قد يصدرُ عنهم من أقوال في حالة "الفناء" إلى ما يوافق عقيدة أهل السُّنة التي هي الأساس في دخولهم طريق الله عز وجل.

أما أولئك المشتغلون بالفلسفة النَّظريَّة الذين يرددون تلك الكلمات زاعمين أنَّها – على ظاهرها – تمثِّل فكرةَ الحلول والاتحاد التي جعلوها عقيدةً عقليةً تصوريَّة مادية لأهل التَّصوُّف، فهذا خطأ كبير، وخلط واضح بين الفكر العقلي المحدود، والذَّوق الروحي اللَّامحدود.

وقد ساعدهم على ذلك بعض الأدعياء –أدعياء التَّصوُّف– الذين يتشبهون بالصُّوفيَّة وليسوا منهم، ويرددون كلامهم بألسنتهم فقط، وقلوبهم مكبلة بشهواتها الدنيويَّة، فيتظاهرون على العوام بترديد تلك الألفاظ المُلبِسة بغير صدق، فأحوالهم تكذِّبهم، ومعاملاتهم مع النَّاس تؤكِّد زيفَ ادعائهم.

من هنا، حرص أئمةُ الصُّوفيَّة الرَّاسخون أن ينبِّهوا أتباعَهم على حفظ ألسنتهم من التفوُّه بأي عبارة تُلبس على النَّاس أمرَ دينهم.

يقولُ الإمام ابنُ عطاء الله السَّكندري – رضي الله عنه – عن شيخه أبي العباس المرسي – رضي الله عنه: "**صحبتُ الشَّيخ اثني عشر عامًا فما سمعت منه شيئا يُنكره ظاهر العلم**".[11]

وحسبك بهذه العبارة من شهادة مسندة من إمام إلى إمام مكتوبة وموثقة في كتاب "لطائف المنن".

ويقول الإمام ابنُ عطاء في "الحِكم" ناصحًا كلَّ مُرِيدٍ سالك: "**كن بأوصاف ربوبيته متعلقًا، وبأوصاف عبوديتك متحققًا. منعك من أن تدَّعي ما ليس لك من المخلوقين؛ أفيُبِيحُ لك أن تدَّعي وَصْفَهُ وهو ربُّ العالمين؟**"[12]. وهذه الحكمة إشارة واضحة إلى النَّهي عن التفوُّه – أي: التلفظ – بالألفاظ التي توهم بالاتحاد والحلول.

وهناك بعضُ المسائل الخاصة بالعقيدة – كإقامة الدَّليل على وجود الله عزَّ وجلَّ – تكلَّم فيه الإمام أبو الحسن الشَّاذلي كلامًا نابعًا من الفطرة الإيمانيَّة، كقوله رضي الله عنه: "**إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان، وإنا لا نرى أحدًا من الخَلق، هل في الوجود أحدٌ سوى الملك الحق؟ وإن كان ولا بُد فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجد شيئًا**".[13]

وقد اعتاد الرَّبانيون من العلماء ألا يسارعوا بالحكم على النَّاس بظواهر الأمور، فَهُم يلتمسون الأعذار ويحتملون الخير محسنين الظَّن بعباد الله، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "**وَلَا تَظنن بِكَلِمَة خرجت من امرئ مُسلم شرًّا وَأَنت تَجِد لَهَا فِي الْخَيْر محملًا**".[14]

ولذلك **رأينا علماء الإسلام الكبار، والفقهاء الرَّبانيين، يتفَهْمون، بل يتذوَّقون عبارات الوَجد والشَّوق** التي قد تصدرُ عن شعراء الحب الإلهي؛ لأن الشِّعر على وجه الخصوص له لغةٌ رمزيَّة خاصة يعرفها كلُّ من تعرَّض لدراسة الأدب في أي لغة على مستوى العالم.

فإذا قال الشاعر:

وجهُـــكَ المـــأمولُ حُجَّتُنَـــا يـومَ يـأتي النـاسُ بـالحُجَجَ[15]

فكيف للعقل هنا أن يُدرِكَ معنى هذا البيت؟ إلا أن يسلمه – فقط – لميدان الشعور القلبي والروحي الذي يتذوَّق البيت بما يحمله من معاني المحبَّة والأمل في لقاء المحبوب الأعظم يومَ القيامة، وهو ما لا يتعارض مع الشرع بحال.

ومن العجيب أن نجدَ من بين علماء مَن يسارعُ في الإنكار على الشُّعراء الذين يُعبِّرون بلغة المشاعر لا بلغة العقول، فيحكمون عليهم من خلال شعرهم بالكفر والإلحاد[16] كما لو أنهم يقاضونهم في محكمة على أقوال صدرت منهم تعمُّدًا لإضلال النَّاس وصرفَهُم عن الشَّرع الشريف، ولم يكن ذلك مقصودًا منهم بلسان الشِّعر.

مع العلم بأنه قد ورد في صحيح السُّنة ما يمكنُ أن يقعَ للعبد المؤمن من سبق لسان (أي: النطق بكلام ظاهره خطأ) بسبب شدة الحال الوارد من فرح أو حزن أو غير ذلك مما قد يذهل العقل.

من ذلك: الحديث التالي: "**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن أَحَدِكُمْ كانَ علَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فأيِسَ منها، فأتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، قدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ، فَبيْنَا هو كَذلكَ إِذَا هو بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فأخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ**".[17]

فلنتبين هنا كيف غلب حالُ الفرح على الرجل صاحب الناقة فأخطأ من شدة الفرح. فهل يعاقبه الله تعالى على هذا الخطأ؟

وكذلك ما صدر من عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في الحديث الذي روته السيدة عائشة – رضي الله عنها – **أَنَّ رَسولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – مَاتَ وأَبُو بَكْرٍ بالسُّنْحِ – قَالَ إسْمَاعِيلُ: يَعْنِي بالعَالِيَةِ – فَقَامَ عُمَرُ يقولُ: واللَّهِ ما مَاتَ رَسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَتْ: وقَالَ عُمَرُ: واللَّهِ ما كانَ يَقَعُ في نَفْسِي إلَّا ذَاكَ، ولَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أيْدِيَ رِجَالٍ وأَرْجُلَهُمْ...**".[18]

فهل يسوغ لعالم مسلم أن يتَّهم الفاروق – رضي الله عنه – في عقيدته من أجل هذه العبارة التي قالها في حال ذهول من شدة المحبَّة؟

أما موقف الصِّديق أبي بكر – رضي الله تعالى عنه – فكان هو الأكمل؛ حيث ثبَّتَ اللهُ قلبَه ليُثَبِّت قلوب المسلمين، فذكَّرهم بقول الله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ**﴾[19].

فحالُ عمر – رضي الله عنه – أشبه ما يكون بما يُعَبِّرُ عنه الصُّوفيَّة بحال الفناء، أي: أنَّه فَنِيَ عن نفسِه ولم يُحَكِّمْ عقلَه الواعي فيما يقول؛ وذلك من شدة المحبَّة، مع هول موقف الفراق.

أما حال أبي بكر – رضي الله عنه – فهو أشبه ما يكون بحال البقاء بعد الفناء، حينما يُعيد الله عبدَه من حال غيبته عن الكون إلى حضوره بين خلقه ليأخذ بأيديهم إليه سبحانه. وهو الحالُ الأكمل كما أشرنا، والأنفع لسائر العباد.

ومن المرونة واليسر الذي نجده في سُنَّةِ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– حول التَّوسُّع في تذوُّق الكلمات المعبِّرة عن حالات شعوريَّة وعاطفيَّة: أن أحد الصَّحابة الكرام قد مدحه بالشِّعر داخل المسجد بعد الصلاة بقصيدة، مَطلَعُها:

بانـــت ســـعادُ فقلبـــي اليـــومَ مَتْبُـــول

فالقصيدة – كما نرى – بدأت بالغزل، بل فيها اسم امرأة محبوبة، وهذه البداية كانت من عادات العرب في مطالع قصائدهم، ثم انتقل الشَّاعر بعدها إلى الاعتذار، ثم إلى مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه، كل ذلك حدث في المسجد، ولم ينكر عليه الرَّسولُ – صلى الله عليه وسلم، ولم يقل له: مَنْ سعاد؟ بل أقبل عليه بوجهه الشَّريف راضيًا وأهداه بردته الشَّريفة.[20]

هل بعد هذا دليل في أن الشِّعر له خصوصية في التعبير؟

وقد **أوضح السيوطي هذه القضية** في كتابه "تأييد الحقيقة العلية" بقوله: "وقد كان ابن الفارض[21] في زمن الشيخ زكي الدين عبد العظيم المنذري، (وهو الإمام الحافظ) واجتمع به، وسمع من شِعره، وذكره في معجمه، ولم يصفه بسوء عقيدة، وقد أثنى عليه عفيف الدين اليافعي[22] أحد أئمة الشافعيَّة، وأحد الأولياء الكبار، في كتابه "كفاية المعتقد ونكاية المنتقد". وابن عربي[23] أثنى عليه اليافعي في كتابه المذكور، والشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه "لطائف المنن"، وهما شاهدا عدل مقبولان في تزكية مثل هذا، فَهْما فقيهان صوفيان".[24] فالإمام السيوطي أرجع الأمرَ إلى أهله، فاستشهد على سلامة أقوال ابن عربي وابن الفارض بمَن هم أهل للشهادة من معاصريهما، وصرَّح بأنهما فقيهان صوفيان، فليت كلَّ عالِم يتحرَّى الدِّقة والحكمة قبل الحكم على عباد الله.

ورحم اللهُ أئمة المسلمين من الفقهاء الذين كانوا يحرصون دائمًا على تعليم أصحابهم ألا يعجلوا في الحُكم بالتحريم على أمور ليس فيها نص قطعي الثبوت قطعي الدِّلالة، مستشهدين بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ**﴾[25].

وللشيخ محمد الحبشي[26] شرح لطيف لبيت من شعر ابن الفارض استُشكل معناه على بعض المريدين، وهو:

قلبـــــي يُحَـــدِّثُني بأنـــــك مُتْلِـــــفِي رُوحـــي فِـداك عرفـتَ أمْ لـمْ تَعـرِفِ

ففسَّره – رضي الله عنه – تفسيرًا يناسب حالَ سلطان العاشقين ولا يقدح في عقيدته، بما يثبت أنَّ أهلَ هذا الطريق المبارك يحرصون على مراعاة أحوال المريدين وهدايتهم إلى الفَهْم الصحيح والذَّوْق السَّليم لما يستمعون إليه من إشارات المحبين.[27]

وما دمنا نتكلَّمُ عن الشِّعر الصُّوفيِّ، فمِن المناسب أن نُعَرِّج على **شعر المديح النَّبوي**، ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشيرَ إلى **بُردة الإمام البوصيري** رضي الله عنه –

وما قدَّره الله لها من شهرة وانتشار بين المسلمين في العالم الإسلاميّ منذ عصر مؤلفها شرف الدين البوصيري[28] وحتى عصرنا الحاضر.

وليس أدلَّ على حظوتها من أن كثيرًا من المسلمين غير النَّاطقين بالعربيَّة يحفظونها عن ظهر قلب بعد حفظهم لكتاب الله الكريم، يتبركون بها ويستروحون بإنشادها في المناسبات الخاصة والعامة بما تحويه من مديح لرسول الله – صلى الله عليه وسلم، صدر عن شاعر صادق محب لحبيب الله.

وبردة البوصيري كُتبت في القرن السَّابع الهجري، أي بعد البردة الأصليَّة التي أشرنا إليها آنفًا بسبعة قرون تقريبًا، وكنَّا قد ذكرنا أن البردة الأصليَّة الأولى كانت للصحابي الجليل كعب بن زهير، ولكن العجبَ العُجاب هنا أن البُردة الأصلية أو الأولى لم تحظَ بنصف شهرة بردة البوصيري، فسبحان الله تعالى الذي يقدِّر لصدق المحبَّة – ولو بعد حين – قبولًا بين النَّاس، خاصة المحبين منهم، فيتوارد عليها أكابر الشعراء ليكتبوا على منوالها، كالبارودي، وأمير الشعراء أحمد شوقي الذي أعجب بها كثيرًا، وقال عنها وعن صاحبها:

الْـمَـادِحُـونَ وَأَرْبَـابُ الْـهَـوَى تَـبَـعٌ لِـصَـاحِـبِ الْبُـرْدَةِ الْفَيْحَـاءِ ذِي الْقَـدَمِ
مَـدِيحُـهُ فِـيـكَ حُـبٌّ خَـالِـصٌ وَهَـوًى وَصَـادِقُ الْـحُـبِّ يُـمْلِـي صَـادِقَ الْكَلِـمِ
اللـهُ يَـشْـهَـدُ أَنِّـي لَا أُعَـارِضُـهُ مَـنْ ذَا يُـعَـارِضُ صَـوْبَ الْـعَـارِضِ الْـعَـرِمِ؟
وَإِنَّـمَـا أَنَـا بَـعْـضُ الْـغَـابِـطِـيـنَ، وَمَـنْ يَـغْـبِـطْ وَلِـيَّـكَ لَا يُـذْمَـمْ، وَلَا يُـلَـمِ

فهذا اعترافٌ من أمير الشعراء أن البوصيري فاق الجميع بصِدق محبته لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا ضير في هذا؛ فقد ضربنا مثلًا للحب الروحي مع بُعد المكان لسيدنا أويس القرني – رضي الله عنه –[29] فلا عجب من أن يتجلَّى هذا المثل للحُب الروحي الصادق مع بُعْدِ الزمان أيضًا.

وقد يعرض سؤال: لماذا سميت بردة البوصيري بالبردة؟ أليست البردة هي قصيدة كعب بن زهير؟

والجواب عن ذلك هو أن البوصيري كما روى أصحاب التراجم والمؤرخون كان شاعرًا كبيرًا في عصره، وكان في بداية أمره يمدحُ السلاطين والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة[30]، وقضى شطرًا من حياته في الأشغال الدنيويَّة إلى أن بدأ مسيرة التَّصوُّف على يد شيخه أبي العباس المرسي بالإسكندرية وسلك الطريقة الشاذليَّة، فلمَّا تقدم به العمرُ أصيب بالفالج (الشلل النصفي) فخلا وحده يتوسَّل إلى الله بمديح رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وبدأ يكتب هذه القصيدة التي استهلها بقوله:

أمِـنْ تـذَكُّرِ جيـرانٍ بـذي سَـلَمِ مَزَجْتَ دمعًا جَرى مِنْ مُقلةٍ بدمِ

على عادة الشُّعراء من البَدء بشعر الغزل العُذريّ في مطالع قصائدهم، ولكنه حمَّلها رموزًا من أماكن بأرض الحجاز لتشير إلى شوقه إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن النَّفس ودسائسها والتحذير من غرورها والدعوة إلى تزكيتها. ومن هذا الجانب قوله:

فـإنَّ أمَّـارَتي بالسـوءِ مـا اتعظـتْ مـن جهلهـا بنـذيرِ الشـيبِ والهـرمِ
ولا أَعَـدَّتْ مِـنَ الفِعْـلِ الجَمِيـلِ قِـرَى ضـيفٍ ألـمَّ برأسـي غيـر محتشـمِ

ويقول:

والـنفسُ كالطفـلِ إن تهملـهُ شَـبَّ علـى حُـبِّ الرَّضـاعِ وإنْ تَفْطِمْـهُ يَـنْفَطِم

ويقول:

وخـالفِ الـنفسَّ والشـيطانَ واعصـهما وإنْ هُمـا مَحَّضـاكَ النُّصـحَ فـاتهم
وَلا تُطِـعْ منهمـا خَصْـمًا وَلا حَكمَـا فأنْـتَ تَعْـرِفُ كيْـدَ الخَصْـمِ والحَكـمِ

وحديثه عن تزكية النَّفس هذا كان بمثابة التَّطهُّر أو الوضوء استعدادًا للانتقال إلى مديح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله – مخاطبًا نفسه:

ظلمتُ سُنَّةَ مـنْ أحيـا الظـلامَ إلـى أنِ اشْـتَكَتْ قَـدَماهُ الضُّـرَّ مِـنْ وَرَم

وظلَّ يردد مديحه في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى وصل إلى قوله: "**فمبلغُ العلمِ فيهِ أنهُ بشرٌ**"، ثم توقف معه الكلام وعجز عن التعبير باللِّسان، فأخذته سِنة من النَّوم، ورأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الرؤيا ليكمل له الشَّطر الثَّاني من البيت بقوله: "**وأنهُ خيرُ خلقِ اللهِ كلهمِ**"، ثم يضعُ عليه بردته الشَّريفة فيقوم معافًى من مرضه بإذن الله وبركة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأنَّ البردةَ كانت مكافأة له في الرؤيا في عالم الأرواح، كما أهداها إلى كعب بن زهير في عالم الأشباح (الأجساد).

ولم يكن البوصيري يرغبُ في حكاية هذه الرؤيا أو نشرها على النَّاس، فإذا بأحد الأولياء يقابله صبيحة ذلك اليوم، ويهنِّئه بالشِّفاء وبرؤية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبالهدية التي أُهديت له (البردة)، وكأنَّه كان شاهدًا وحاضرًا معه، وإذا بالقصة تنتشر بين النَّاس، وبالتالي تشتهرُ البردةُ ويتنافسُ النَّاس في حيازتها وإنشادها والتَّبرُّك بها منذ عصر الشَّاعر حتى الآن.

وقد قيل: إنَّ أحد الوزراء كان لا يستمعُ إليها إلا واقفًا حافيًا مكشوف الرَّأس كما ورد في المصادر التَّاريخيَّة لهذه المرحلة.[31]

ونظرًا لأننا ذكرنا الإمام البوصيري وبردته الشهيرة، فقد يحسن بنا أن نوضحَ ما قد يلتبسُ على بعض النَّاس مما ورد فيها من عبارات ذكر بعض من ينتسبون للعلم أنَّ فيها مبالغة في مديح رسول الله؛ مع أنَّ هذا أمر ذوقي تقبل فيه عبارات الثَّناء والتَّعظيم التي تخرجُ من القلوب المترعة بالإيمان والمحبَّة، وهل بعد ثناء الله تعالى على رسوله – صلى الله عليه وسلم – بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[32]، وبعد قوله

تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾[33]، من ثناء أو مدح بشري يفي بحق الحبيب الأعظم.

وسنضرب مثلًا هنا لأهم بيتين تعرَّضا لنقد النَّاقدين، ونذكر الدَّليل على أنهما مقتبسان من نصوص الشَّرع الشَّريف، فضلًا عن موافقتهما للعقيدة الإسلاميَّة التي تُفرِّق بين العلم الأزلي القديم والذي لا يكون إلا لله "الواهب" سبحانه، والعلم الوهبي المكتسب "الموهوب" أي: "المخلوق" الذي يمكن أن يمنحه الله لمن شاء من خَلْقِه، وليس أَحَبَّ إليه من المصطفى – صلى الله عليه وسلم.

المثال الأول: قول البوصيري:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ

فعلم اللَّوح والقلم هذا من خَلْق الله، وإذا أراد اللهُ أن يؤتيه مَن يشاءُ مِن خَلْقِه فمن ذا يريدُ منعَ ذلك إلا جاحد فضل الله على عباده؟!

والدَّليل على أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – علَّمه الله علمَ ما في السماوات والأرض، ما ورد في "صحيح الترمذي" من حديث معاذ بن جبل: "**احتُبِسَ عنَّا رسولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – ذاتَ غداةٍ من صلاةِ الصُّبحِ حتَّى كدنا نتَراءى عينَ الشَّمسِ، فخرجَ سريعًا فثوّبَ بالصَّلاةِ، فصلَّى رسولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – وتجوَّزَ في صلاتِهِ، فلمَّا سلَّمَ دعا بصوتِهِ فقالَ لَنا: علَى مصافِّكم كما أنتُمْ ثمَّ انفتلَ إلينا فقالَ: أما إنِّي سأحدِّثُكُم ما حبسَني عنكمُ الغداةَ: أنِّي قمتُ منَ اللَّيلِ فتوضَّأتُ فصلَّيتُ ما قُدِّرَ لي فنعَستُ في صلاتي فاستثقلتُ، فإذا أَنا بربِّي تبارَكَ وتعالى في أحسَنِ صورةٍ، فقالَ: يا مُحمَّدُ قلتُ: ربِّ لبَّيكَ، قالَ: فيمَ يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قلتُ: لا أدري ربِّ، قالَها ثلاثًا قالَ: فرأيتُهُ وضعَ كفَّهُ بينَ كتفيَّ حتَّى وجدتُ بردَ أَناملِهِ بينَ ثدييَّ، فتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرَفتُ، فقالَ: يا محمَّدُ، قلتُ: لبَّيكَ ربِّ، قالَ: فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى؟ قلتُ: في الكفَّاراتِ، قالَ: ما هنَّ؟ قلتُ: مَشيُ الأقدامِ**

إلى الجماعاتِ، والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصَّلاةِ، وإسباغُ الوضوءِ في المَكْروهاتِ، قالَ: ثمَّ فيمَ؟ قلتُ: إطعامُ الطَّعامِ، ولينُ الكلامِ، والصَّلاةُ باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ. قالَ: سَل، قُلت: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ فعلَ الخيراتِ، وتركَ المنكراتِ، وحُبَّ المساكينِ، وأن تغفِرَ لي وترحمَني، وإذا أردتَ فتنةً في قومٍ فتوفَّني غيرَ مفتونٍ، وأسألُكَ حبَّكَ وحبَّ من يحبُّكَ، وحبَّ عملٍ يقرِّبُ إلى حُبِّكَ، قالَ رسولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم–: إنَّها حقٌّ فادرُسوها ثمَّ تعلَّموها".[34]

المثال الثاني، قول البوصيري:

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَالِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ

والحادث العَمِم: هو يوم القيامة، واللُّجوء فيه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وارد في حديث الشَّفاعة، وهو في الصحيحين[35].

إذن، فقد تبيَّن بعد هذه الدَّلائل الشَّرعيَّة، من نقليَّة، وعقليَّة، فساد تلك الأقوال القادحة في بعض العبارات الصوفية من شعر ونثر؛ ومن هنا تبرز أهمية التذوق الأدبي واستحضار المشاعر الروحية في فهم واستيعاب تلك العبارات على الوجه الذي لا يتنعارض مع المعتقدات الدينية.

الهوامش

[1] البخاري: 638، ومسلم 270، ونصه كاملًا: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "كُنَّا مع النبيِّ – صلى الله عليه وسلم – في سَفَرٍ، فَكُنَّا إذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقالَ النبيُّ – صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّها النَّاسُ ارْبَعُوا علَى أنْفُسِكُمْ، فإنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولَا غَائِبًا، ولَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا ثُمَّ أتَى عَلَيَّ وأَنَا أقُولُ في نَفْسِي: لا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ، فَقالَ: يا عَبْدَ اللَّهِ بنَ قَيْسٍ، قُلْ: لا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ، فإنَّهَا كَنْزٌ مِن كُنُوزِ الجَنَّةِ أوْ قالَ: ألَا أدُلُّكَ علَى كَلِمَةٍ هي كَنْزٌ مِن كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ".

[2] البخاري: 6502. ونصه كاملًا: "إنَّ اللَّهَ قالَ: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَألَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ".

[3] أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت 505هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص227، كتاب آداب العُزلة.

[4] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ، قال رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ"، هذا الحديث رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه منها (7088) كتاب الفتن. وروى مسلم في صحيحه نحوه (1888) عن أبي سعيد الخدري أيضًا – رضي الله عنه "أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: رَجُلٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَعْبُدُ اللَّهَ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ".

[5] صحيح مسلم: 2622.

[6] غافر: 28.

[7] إحياء علوم الدين 2/ 291.

[8] السابق 4/ 322.

[9] تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشَّاذليَّة، لأبي الفضل جلال الدين السيوطي، صححه وعلَّق عليه: عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري، مكتبة القاهرة، 2008هـ.

[10] تأييد الحقيقة العلية، ص 51.

[11] ابن عطاء الله السَّكندري، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن، تحقيق وتقديم وتعليق: أ.د/ أنس عطية الفقي، جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، 2023م، ص143.

[12] الحكمة 125.

[13] لطائف المنن، ص55.

[14] أخرجه ابن حبان في "روضة العقلاء" (ص 89 – 90) من طريق إبراهيم بن موسى المكي عن يحي بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب. وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (7/ 22) وعزاه الخطيب في "المتفق والمفترق" عن سعيد ابن المسيب عن عمر بن الخطاب. ورواه الخرائطي في "مكارم الأخلاق" (رقم 362، 4805) من طريق بديل بن ورقاء عن عمر.

[15] الرَّسالة القشيرية 636.

[16] صدر هذا من ابن تيمية – عفا الله عنه؛ حيث أفتى بوجود كُفر وضلال في أقوال ابن الفارض، وابن عربي، والبوصيري، والعفيف التلمساني، وهم من كبار شعراء الصُّوفيَّة. دون أن يلتمسَ لهم أو لأحوالهم الشُّعوريَّة عذرًا. فكان مما قاله: "وَلَا رَيْبَ أَنَّ فِي قَوْلِ هَؤُلَاءِ مِنْ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ: مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. وَهَذَا الْمَذْهَبُ شَائِعٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَكَانَ طَوَائِفُ مِنْ الْجَهْمِيَّة يَقُولُونَ بِهِ، وَكَلَامُ ابْنِ عَرَبِيٍّ فِي فُصُوصِ الْحِكَمِ وَغَيْرِهِ، وَكَلَامُ ابْنِ سَبْعِين وَصَاحِبِهِ الششتري، وَقَصِيدَةِ ابْنِ الْفَارِضِ (نُظُمُ السُّلُوكِ)، وَقَصِيدَةِ عَامِرٍ الْبَصْرِيِّ، وَكَلَامِ الْعَفِيفِ التلمساني، وَعَبْدِ اللَّهِ البلياني، وَالصَّدْرِ القونوي، وَكَثِيرٍ مِنْ شِعْرِ ابْنِ إسْرَائِيلَ، وَمَا يَنْقُلُ مِنْ ذَلِكَ عَنْ شَيْخِهِ الْحَرِيرِيِّ؛ وَكَذَلِكَ نَحْوٌ مِنْهُ يُوجَدُ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ، غَيْرِ هَؤُلَاءِ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ، مَذْهَبِ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ وَوَحْدَةِ الْوُجُودِ". (انظر "مجموع الفتاوى" لابن تيمية، مجمع الملك فهد، السعودية، 1425هـ – 2004م، 2/296، 297).

[17] مسلم: (2747). والبخاري: (6308) باختلاف يسير.

[18] البخاري: (3667).

[19] آل عمران: 144.

[20] كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، شاعر مشهور، وأبوه من فحول شعراء عصر ما قبل الإسلام وكان أكثرهم حكمة وبيانًا. وكان كعب بن زهير من الشعراء الذين عاونوا المشركين ضد المسلمين، فقال بعض القصائد التي نال فيها من الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن أبي بكر – رضي الله عنه، فكتب له أخوه خبرًا يدعوه للمسارعة بالتوبة والإسلام، فجاء متنكرًا وأسلم على يد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد أن طلب الأمان فأمَّنه، وقال قصيدته المشهورة في مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم، فأهداه الرَّسول – صلى الله عليه وسلم – بُردة له. ويروي ابن حجر في "الإصابة" وابن الأثير في "أُسد الغابة": أن كعب بن زهير – رضي الله عنه – قَدِم المدينة وهو متلثم فسأل عن أرق أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – فأخبر أنه أبو بكر الصديق – رضي الله عنه، فذهب إلى أبي بكر وأخبره خبره، فمشى أبو بكر وكعب على إثره وهو متلثم حتى صار بين يدي الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقال أبو بكر: يا رسول الله، رجل يبايعك، فمد الرسول – صلى الله عليه وسلم يده، ومد كعب يده، فبايعه وأسفر عن وجهه.

وأنشد كعب قصيدته الجميلة البديعة المشهورة باسم "البردة" والتي كان بعض العلماء يستفتح حلقة علمه ودرسه بقراءتها لما فيها من مدح للرسول – صلى الله عليه وسلم – والتي يقول فيها:

بانت سُعاد فقلبي اليوم متبولُ مُتيمٌ إثرها لم يُفد مكبولُ

إلى أن يقول:

أُنبئتُ أن رسولَ الله أوعدني والعفوُ عند رسولِ اللهِ مأمولُ
وقد أتيتُ رسول الله معتذرًا والعذرُ عند رسول الله مقبولُ
مهلًا هداك الذي أعطاك نافلة الـ قُرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تأخذَنِّي بأقوال الوشاة ولم أذنب وقد كثُرت فيّ الأقاويلُ
إن الرسول لسيف يستضاء به مُهَنَّدٌ مِنْ سُيوفِ الله مسلولُ

إلى نهاية القصيدة الرائعة.

فعفا عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكساه بردته، فاشتراها معاوية بن أبي سفيان من ورثته بعشرين ألف درهم ثم لا يزال يتوارثها الخلفاء.

ومات كعب بن زهير – رضي الله عنه – سنة 24هـ، وقيل 26هـ. (مختصر من كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير؛ وكتاب "الإصابة" للإمام ابن حجر العسقلاني).

[21] ترجم له ابن خلكان بقوله: "أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد ابن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، المنعوت بالشَّرف؛ له ديوان شعر لطيف، وأسلوبه فيه رائق ظريف ينحو منحى طريقة الفقراء؛ ... وكانت ولادته في الرابع من ذي القعدة سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة. وتوفي بها يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، ودفن من الغد بسفح المقطم، رحمه الله تعالى. (انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ)، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 454/3). وانظر أيضًا (الأعلام للزركلي (5/ 55).

[22] ذكره الإمام تاج الدين السبكي في "طبقات الشافعية الكبرى (10/ 33)" فقال: عبدالله ابن أسعد بن عَليّ الْيَمَانِيّ اليافعي، الرجل الصَّالح صَاحب المصنفات الْكَثِيرَة وَالنّظم الْكثير. اجْتمعت بِهِ فِي منى سنة سبع وَأَرْبَعين وَسَبْعمائة. وَتُوفِّي بِمَكَّة سنة سبع وَسِتِّينَ وَسَبْعمائة فِي جُمَادَى الأولى مِنْهَا". وقال ابن حجر في "الدرر الكامنة (3/ 19)": "وَكَانَ كثير الإيثار للْفُقَرَاء، كثير التَّوَاضُع، مترفعًا على الْأَغْنِيَاء، معرضًا عَمَّا بِأَيْدِيهِم، نحيفًا، ربعَة، كثير الْإِحْسَان للطلبة إِلَى أَن مَاتَ، وَقَالَ ابْن رَافع: اشْتهر ذكره وَبعُد صيته، وصنف فِي التصوف وَفِي أصُول الدّين، وَكَانَ يتعصب للأشعري، وَله كَلَام فِي ذمّ ابْن تَيْمِية".

[23] محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبدالله، الشيخ محي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، والمعروف بابن عربي، صاحب التصنيفات في التَّصوف (وأشهرها الفتوحات المكية)، ولد في شهر رمضان سنة ستين وخمسمائة بمرسية، ذكر أنه سمع بمرسية من ابن بشكوال، وسمع ببغداد ومكة ودمشق، وسكن الروم. ووفاته في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة. (انظر فوات الوفيات 3/ 435).

[24] تأييد الحقيقة، ص 61.

[25] النحل: 116. أسند الدارمي أبو محمد في مسنده: أخبرنا هَارُونُ عَنْ حَفْصٍ عَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ: مَا سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ قَطُّ يَقُولُ حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ، وَلَكِنْ كَانَ يَقُولُ: كَانُوا يَكْرَهُونَ، وَكَانُوا يَسْتَحِبُّونَ.

قال ابْنُ وَهْبٍ: قَالَ مَالِكٌ: لَمْ يَكُنْ مِنْ فُتْيَا النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حرام، ولكن يقولون: إِيَّاكُمْ كَذَا وَكَذَا، وَلَمْ أَكُنْ لِأَصْنَعَ هَذَا. ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ

أَنْ يَقُولَ أَوْ يُصَرِّحَ بِهَذَا فِي عَيْنٍ من الأعيان، إلا أن يكون الباري تَعَالَى يُخْبِرُ بِذَلِكَ عَنْهُ. وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي أَنَّهُ حَرَامٌ يَقُولُ: إِنِّي أَكْرَهُ [كَذَا]. وَكَذَلِكَ كَانَ مَالِكٌ يَفْعَلُ اقْتِدَاءً بِمَنْ تقدم من أهل التقوى.

[26] العلامة الرحالة الولي الصالح المسند الكبير شمس الدين أبو عبدالله محمد الحبشي ابن علي أبو سيد أحمد بن خطاب الشرقاوي ثم السكندري الشاذلي الشافعي. ولد سنة 1246هـ، في قرية كفور نجم، بمحافظة الشَّرقيَّة، وبها نشأ. حفظ القرآن، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي، وتلقى العلم على جماعة من العلماء؛ منهم: الشيخ عبدالله الشيني، إلا أن عمدته من شيوخه: العلامة الشيخ عبدالقادر بن عبدالوهاب الشاذلي الطرابلسي (ت 1297هـ). (انظر كامل الترجمة في كتاب: "جمهرة أعلام الأزهر الشريف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين، للشيخ أ.د/ أسامة الأزهري).

[27] قال سيدي محمد حبشي – رضي الله عنه – عند شرحه لهذا البيت: "المعنى: روحي الساري في وجودي الشامل لجميع أجزائي المتضمن لحياتي فداك، عرفت ذلك لي أي: جازيتني عليه بما تقدم مما خصصت به أهل محبتك، أم لم تعرفه لي أي: لم تجازني به، وقلت: أنت ملكي وأنا ملكك، والمملوك وما ملك لسيده ومالكه، فلا إشكال حينئذ والله أعلم". (انظر كتاب "النور الساطع في مناقب الشيخ محمد الحبشي"، تأليف الشيخ حسين فوزي، مطبعة جريدة البصير بالإسكندرية 1908م، ص 55).

[28] ذكره الصفدي في كتابه "الوافي بالوفيات" فقال: "البوصيري مُحَمَّد بن سعيد بن حَمَّاد بن محسن بن عبد الله ابْن حياني بن صنهاج بن ملال الصنهاجي شرف الدّين أَبُو عبد الله... وشعره فِي غَايَة الْحسن واللطافة، عذب الْأَلْفَاظ، منسجم التَّرْكِيب" (ت 696هـ). (انظر التَّرجمة كاملة في "الوافي بالوفيات"، للصفدي تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ– 2000م، (3/ 88 فما بعدها). وانظر أيضًا: "فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي).

[29] أويس بن عامر القرني شاب صالح من اليمن أحبه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دون أن يلقاه وبشَّر بقدومه بعده، ونصح الصحابة بأن يلتمسوا منه البركة والدعاء. وقد وفد إلى المدينة في عهد عمر رضي الله عنه، فطلب منه أن يستغفر الله له. انظر صحيح مسلم 2542.

[30] انظر "الاتجاه النَّاقد في شعر البوصيري"، أ.د/ أنس عطية الفقي. المكتبة العالمية للنشر والتوزيع، 2008م، ص 48.

[31] ورد في "الوافي بالوفيات" للصفدي ما نصه: "قَالَ البوصيري: كنت قد نظمت قصائد فِي مدح رَسُول الله – صلى الله عَلَيْهِ وَسلم – مِنْهَا مَا كَانَ اقترحه عَليّ الصاحب زين الدّين يَعْقُوب بن الزبير، ثمَّ اتّفق بعد ذَلِك أَنه أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت فِي عمل قصيدتي هَذِه "الْبردَة"، فعملتها، واستشفعت بِهِ إِلَى الله – عز وَجل – فِي أَن يعافيني، وكررت إنشادها، وبكيت، ودعوت، وتوسلت بِهِ، ونمت فَرَأَيْت النَّبِي – صلى الله عَلَيْهِ وَسلم – فَمسح على وَجْهي بِيَدِهِ الكريمة، وَألقى عَليّ بردةً، فانتبهت وَوجدت فِيَّ نهضة، فَخرجت من بَيْتِي وَلم أكن أعلمت بذلك أحدًا، فلقيني بعض الْفُقَرَاء، فَقَالَ: أُرِيد أَن تُعْطِينِي القصيدة الَّتِي مدحت بهَا رَسُول الله – صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، فَقلت: أَيهَا؟ فَقَالَ: الَّتِي أنشأتها فِي مرضك، وَذكر أَولهَا وَقَالَ: وَالله لقد سمعنَا البارحة وَهِي تنشد بَين يدَي رَسُول الله – صلى الله عَلَيْهِ وَسلم – ورأيته – صلى الله عَلَيْهِ وَسلم – يتمايل، وأعجبَتْه، وَألقى على مَن أنشدها بردة. فأعطيته إِيَّاهَا، وَذكر الْفَقِير ذَلِك، فشاع الْمَنَام إِلَى أن اتصل بالصاحب بهاء الدّين وَزِير الظَّاهِر فَبعث إِلَيّ واستنسخها وَنذر أَلا يسْمعهَا إِلَّا قائمًا حافيًا مَكْشُوف الرَّأْس.." (الوافي بالوفيات (3/ 93). وانظر أيضًا: "فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي).

[32] القلم: 4.

[33] النساء: 113.

[34] أخرجه الترمذي (3235) واللفظ له، وأحمد (22162).

[35] أخرجه البخاري (7510)، ومسلم (193).

المراجع

- القرآن الكريم.
- ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد، السعودية، 1425هـ – 2004م.
- ابن عطاء الله السَّكندري، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن، تحقيق وتقديم وتعليق: أ.د/ أنس عطية الفقي، جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، 2023م.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين، تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذليَّة، صححه وعلَّق عليه: عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري، مكتبة القاهرة، 2008هـ.
- أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (ت 327هـ)، مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، تقديم وتحقيق: أيمن عبدالجابر البحيري، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1419هـ – 1999م.
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت 505هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.
- أنس عطية الفقي، الاتجاه الناقد في شعر البوصيري، المكتبة العالمية للنشر والتوزيع، 2008م.
- ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد البنا، ومحمد عاشور، دار الشعب– القاهرة 1970م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (ت 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، 1415هـ.
- الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين– بيروت 1986م.

- جلال الدين السيوطي عبدالرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور، (ت911هـ)، دار الفكر، بيروت.
- أسامة الأزهري، جمهرة أعلام الأزهر الشريف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، المتفق والمفترق، (ت463هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد صادق آيدن الحامدي، دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1417هـ – 1997م.
- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (ت852هـ)، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، 1392هـ، 1972م.
- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت 354هـ)، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (ت 1392هـ). دار الكتب العلمية، بيروت.
- الترمذي محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (ت 279هـ)، سنن الترمذي تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ4، 5)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1395هـ، 1975م.
- البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري دار الشعب – القاهرة (بدون تاريخ).
- مسلم، صحيح مسلم، بشرح النووي، ط1، 1997م، دار العلوم الإنسانية، دمشق.
- السبكي، تاج الدين عبدالوهاب السبكي، طبقات الشَّافعيَّة الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبدالفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة 1986م.

- محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر – بيروت 1973م.
- الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، تحقيق لجنة من دار النشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996.
- الدارمي، مسند الدارمي، تحقيق حسين الداراني، دار المغني، الرياض، ودار ابن حزم، بيروت 2000م.
- حسين فوزي، النُّور السَّاطع في مناقب الشيخ محمد الحبشي، مطبعة جريدة البصير بالإسكندرية 1908م.
- الصَّفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت 764هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ-2000م.
- ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، إحسان عباس، دار صادر، بيروت.